﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ ٣١﴾ [المائدة: 31]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا كان التَّقدير: ثُمَّ إنَّ الأخ القاتل لم يدرِ ما يصنع به؛ إذ كان أوَّل ميِّتٍ، ولم يكن الدَّفنُ معروفًا؛ سبَّبَ عنه قوله: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: ألهم بالفطرة بأنَّ عليه ستر سوءة أخيه، ومواراته عن الأنظار، فبعث الله الغراب لهذه المَهمَّة[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَبۡحَثُ﴾: "الباءُ والحاءُ والثَّاء: أصلٌ واحدٌ، يدلُّ على إثارة الشَّيء، قال الخليل: البحث: طَلَبُك شيئًا في التُّراب"[2]، البَحْثُ: الكشف والطَّلب، يقال: بَحَثْتُ عن الأمر[3]، وهو: التَّنقيب على الشَّيء والاجتهاد في معرفة باطنه وخفيه، وأصله: من بحث الأرض لمعرفة ما داخلها وإثارة ما كان كامنًا فيها، قال الله تعالى: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبۡحَثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾؛ أي: يثيرها، ويوقع الحفر بمنقاره، وذلك ليعلم قابيل كيف يدفن أخاه[4].

2) ﴿يُوَٰرِي﴾: "التَّوْرِيةُ: إخفاء الخبر، وعدم إظهار السِّرِّ، تقول: وَرَّيته تَوْرِيةً"[5]، وواريت الشَّيء؛ أي: أخفيته، وتوارى هو؛ أي: استتر[6]، وقوله: ﴿فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ﴾؛ أي: أسترها، وكذا قوله: ﴿يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ﴾ [الأعراف: 26]، ومثله: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتۡ بِٱلۡحِجَابِ ٣٢﴾ [ص: 32][7].

3) ﴿سَوۡءَةَ﴾: السِّين والواو والهمزة: من باب القبح، تقول: رجل أَسْوَأ؛ أي: قبيح، وامرأة

(1) البقاعيّ، نظم الدُّرر: 6/122.
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة: (بحث).
(3) الرّاغب، المفردات: (بحث).
(4) السّمين، عمدة الحفّاظ: (بحث).
(5) الخليل، العين: (وري).
(6) الجّوهري، الصّحاح، والرّاغب، المفردات: (ورى).
(7) السّمين، عمدة الحفّاظ: (وري).

سوآء؛ أي: قبيحة، ولذلك سُمِّيتِ السَّيِّئَة سيِّئة، وسُمِّيتِ النَّار سوءة؛ لقبح منظرها[1]، والسُّوء: كلُّ ما يغمُّ الإنسان من الأمور الأخرويَّة والدُّنيويَّة، ومنه أطلقتِ السَّوءةُ على العورة؛ لأنَّها تسوءُ من ينظر إليها، أو تُسيء من تظهر منه؛ لاستكراه ذلك طبعًا، أو لأَنَّ إظهارها عيبٌ شرعًا وَعُرفًا؛ ولذلك كُنِّي عن الْفَرْجِ بِالسَّوْءَةِ، وقوله تعالى: ﴿سَوْءَةَ أَخِيهِۚ﴾، يريد: ما ساءَه فيها[2]، وبذا فُسِّرت اللَّفظة في الآية، فهي "عورة أخيه، وما لا يجوز أن ينكشف من جسده"[3]، وقد يراد بالسَّوءة في الآية الجسم كلُّه بعد موته؛ لأنَّه بعد موته صار جسمه كلُّه سوءة يسوء النَّظر إليها، ولا تألف الطِّباع السَّليمة رؤيته، ولا سيَّما بعد أن تتحوَّل حالُه، ويتعفَّن[4].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

من أقسى صور المهانة والإذلال أنْ تُعلِّمَ البهيمةُ العِبَرَ

بعد أن ارتكب القاتل جريمته، وأحسَّ بالخسارة الشَّديدة الَّتي نالته، لم يرد أن يترك جسم أخيه ملقًى تنهشه السِّباع، أو تمزِّقه جوارح الطُّيور، فأُلْهِمَ بالفطرة أنَّه لَا بدَّ من مداراة جسمه، وستره، وإبعاده عن الأنظار، فاستيقظت الأخوَّة في نفسه، بعد أنْ خبتت أمدًا ارتكبَ فيه جريمته، فاتَّجه لمواراةِ جثَّة أخيه، وسترها، وقد أراد اللَّه تعالى أن يعلِّمه ذلك، فبعث غرابًا ليقوم بهذه المهمَّة[5]، ﴿فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾، وهكذا عاقبةُ المعاصي النَّدامةُ والخُسْران[6].

من هدايات هذه الآية أنَّها مشهد عظيم لأوَّل حضارة في البشر، وهي من قبيل طلب ستر المشاهد المكروهة، وهو مشهد أوَّل علمٍ

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة: (سوء).
(2) الرّاغب، المفردات: (سوأ)، وابن الجوزي، نزهة الأعين النواظر، ص: 433، والسّمين، عمدة الحفّاظ: (سوأ).
(3) النّسفي، مدارك التنزيل: 1/442.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/2131.
(5) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/2131.
(6) السّعدي، تيسير الكريم الرحمن، ص: 229.

اكتسبه البشر بالتَّقليد وبالتَّجربة، وهو مشهد أوَّل مظاهر تلقِّي البشر معارفه من عوالم أضعف منه، كما تشبَّه النَّاس بالحيوان في الزِّينة، فلبسوا الجلود الحسنة الملوَّنة، وتكلَّلوا بالرِّيش الملوَّن وبالزُّهور والحجارة الكريمة، فكم في هذه الآية من عبرة للتَّاريخ والدِّين والخلق[1].

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

وظيفة الفاء الفصيحة في تقدير المحذوف:

(الفاء) في قوله: ﴿فَبَعَثَ﴾ هي الفاء الفصيحة، ووجْهها الإفصاحُ عن جواب شرط مقدَّر، تقديره: إذا عرفت أنَّه قتل أخاه، وأردت بيان ما فعله بجثَّة أخيه؛ فأقول لك: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا﴾[2].

علَّة إيثارِ لفظ البَعْث:

في لفظ البعث بعثٌ لمشاعر الأخوّة وتوجيه بدفن الأخ لأخيه

ورد لفظ (البعث) في القرآن على ثمانية معانٍ، أحدها: الإلهام: ﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ﴾؛ أي: ألهمه بالطَّيران إلى ذلك المكان، وأَصل البعث: إِثارة الشَّيءِ وتوجيهه، يقال: بعثْتُه فانبعث[3]، ومعنى الإثارة والتوجيه روعيَ في انتقاء اللَّفظة بصنيع الدَّفن إثارةً للأرض، ولمشاعر الأخ، وإرشادًا له بدفن أخيه.

بلاغةُ الاستعارةِ التَّصريحيَّة:

البعث والبحث بينهما تلاؤم لفظيّ، وانسيابٌ دلاليّ

في قوله: ﴿فَبَعَثَ﴾ "استعارة تصريحيَّة تبعيَّة، شبَّه فيها التَّسخيرَ بالبعثِ: بجامع ما في كلٍّ منهما من الحصول والنَّفع، كما أنَّ في ﴿يَبْحَثُ﴾ استعارة البحث للحفر، بجامع ما في كلٍّ منهما من ترتُّب شيء على شيء والظَّفر بالغاية"[4]، ويكمن جمال الاستعارة

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/174.
(2) الهرريّ، حدائق الروح والريحان: 7/255.
(3) الفيروزآبادي، بصائر ذوي التمييز: 2/214 - 215، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/173.
(4) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/249.

في استعارةِ لفظ البعث للإرسال والإلهام، وفي استعارةِ لفظ البحث للحفر، وبين البعث والبحث تلاؤم بديع.

نكْتَة التَّعبير عن لفظ (البحث) بصيغة المضارع:

طول مدَّة البحث واستمراره تعريضٌ بجهلِ القاتل وغفلته

أصل كلمة البحث: كشفُ الأرض، أو دقُّها، أو حفرُها، وهو الكشف والطَّلب، فيقال: بحثت عن الأمر، وبحثت كذا، والمعنى: أنَّ الغراب أخذ يدقُّ بمنقاره مثيرًا للأرض، حتَّى حفر حفرة فيها، ثمَّ دفن ما شاء أن يدفنه، وأنَّه دأب في ذلك وقتًا طويلًا؛ بدليل التَّعبير بقوله: ﴿يَبۡحَثُ﴾ بالمضارع بدل الماضي؛ لأنَّ في التَّعبير بالمضارع إشارة إلى حال استمرَّت لا إلى واقعة وقعت فقط، فالتَّعبير بالمضارع عن أمر مضى لبيان أنَّ الفعل مكث وقتًا، وكان مجال استمرار[1]، أحدث بها حفرة في الأرض، فلمَّا رأى القاتل الحفرة، وهو متحيِّر في أمر مواراة سوءة أخيه؛ زالت الحيرة، واهتدى إلى ما يطلب، وهو دفن أخيه في حفرة من الأرض[2]، وفي هذا تعريضٌ بالقاتل ومزيدُ ذمٍّ؛ لكونه احتاج مثالًا، واستغرق وقتًا وجهدًا، حتَّى استفاق لسوء صنيعه، وشرور عمله.

معنى اللَّام في فعل الإراءة:

تـردُّدُ الـلَّامِ بين معنى العاقبة والتَّعليل

يجوز في اللَّام في قوله تعالى: ﴿لِيُرِيَهُۥ كَيۡفَ يُوَٰرِي سَوۡءَةَ أَخِيهِۚ﴾ وجْهان:

أحدهما: أنَّها متعلِّقة بـ ﴿يَبۡحَثُ﴾؛ أي: يَنْبُشُ، ويُثِيرُ التُّراب؛ للإراءة، فاللَّام للصيرورة والعاقبة؛ إذا كان الضَّمير عائدًا إلى الغراب؛ أي: لتكون عاقبة بحثه ما ذكر.

الثاني: أنَّها متعلِّقة بـ ﴿فَبَعَثَ﴾، والمعنى: لِيُرِيَه اللّه - وهو الصَّحيح -، أو ليريه الغرابُ، واللَّام في قوله تعالى: ﴿لِيُرِيَهُۥ﴾

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/2132.
(2) رضا، تفسير المنار: 6/286.

للتَّعليل؛ إذا كان الضَّمير راجعًا إلى الله تعالى؛ أي: إنَّه تعالى ألهم الغراب ذلك ليتعلَّم ابن آدم منه الدَّفن[1].

نكْتَة إضمار الفاعل:

فعل الله تعالى تعليميٌّ، وأمَّا الغراب ففعله تهكميٌّ

أضمر الفاعل في قوله تعالى: ﴿لِيُرِيَهُۥ﴾، ولم يُؤْتَ به مظهرًا؛ لتكثير الفائدة والتَّردُّد في مرجع الضَّمير المستكنِّ، هل هو ﴿ٱللَّهُ﴾ فاعل ﴿فَبَعَثَ﴾، أم ﴿غُرَابًا﴾ مفعول ﴿فَبَعَثَ﴾؟ فالضَّمير المستتر في ﴿لِيُرِيَهُۥ﴾: إن كان عائدًا إلى اسم الجلالة؛ فالتَّعليل المُستفادُ من اللَّام وإسناد الإرادة حقيقتان؛ لأنَّ الإرادة حقيقة هي من الله؛ إذ ليس للغراب قصدُ الإراءة وإرادتها، وإن كان عائدًا إلى الغراب؛ فاللَّام مستعملة في معنى: فاء التَّفريع، وإسناد الإرادة إلى الغراب مجاز؛ لأنَّه سبب الرُّؤية؛ أي: ليريه الغراب؛ أي: ليعلمه؛ لأنَّه لمَّا كان سبب تعليمه، فكأنَّه قصد تعليمه على سبيل المجاز[2].

وحمل الفاعل على أن يكونَ الله تعالى، ظاهرٌ لا خفاءَ فيه، وهو مبنيٌّ على الحكمةِ الإلهيَّة، وحمله على الغراب، فهو عائدٌ ضرورةً إلى أنَّه قام بقصد فعل الإراءة بإلهام الله له، وحينئذٍ يكون في ذلك تهكُّمٌ في القاتلِ؛ أي: أنَّه أصبح تلميذًا يتعلَّم من الغرابِ كيف يُخفي جريمته، والمعنيان مقبولانِ، فالفاعل حقيقةً هو الله تعالى، وأمَّا الغراب ففعله بالمآل لا بالمبدأِ.

يجوز في كلا التَّقديرين أن يكون الإسنادُ من المجاز العقليّ:

وذهب بعضهم إلى أنَّ الإسنادَ في كلا التَّقديرين من المجاز العقليِّ، فإن كان الضَّمير عائدًا إلى (الله)؛ فإسنادُ الفعل (يُري) من الإسناد إلى السَّبب المؤثِّر؛ لأنَّ بعث الغراب كان سببه إلهام الله

(1) ابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 7/293، ورضا، تفسير المنار: 6/286.

(2) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/341، وأبو حيّان، البحر المحيط: 3/480، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/173، والمطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/249.

إليه، وإن كان الضَّمير عائدًا على (الغراب)؛ فالإسنادُ إليه من الإسناد إلى آلة الفعل[1].

علَّة التَّصريح بذكر لفظ السَّوءة مضافًا إلى الأخ:

السَّوءة: الفضيحة العظيمة لقبحها، أو هي الحالة الَّتي تسوءُ النَّاظر بمجموعها، فهي ما يسوءُ ظهوره من الجسد، ورؤية جسد الميت، ولا سيَّما المقتول، يسوءُ كلَّ مَنْ ينظرُ إليه، ويوحشه[2]، والمراد بها هنا: جميع جسد الميت، وقيل: المراد بها العورة؛ لأنَّها تسوءُ ناظرها، وخُصَّتْ بالذِّكر مع أنَّ المرادَ مواراة جميع الجسد للاهتمام بها؛ لأنَّ سترها آكد[3]، وأضيفت إلى المقتول من حيث نزلت به النَّازلة، لا على جهة الغضِّ منه، بل الغضُّ لاحقٌ للقاتل، وهو الَّذي أتى بالسَّوءة[4]، وفي الإضافة إشعارٌ بِعِظَم الذَّنب، وشديدِ الذَّمِّ؛ فالسَّوءة للأخ القريب لا للغريب، والأصل أن يحرص الأخ على ستر سوءة أخيه، لا العكس، فالقرآن يعرِّض بمن يصنع ذلك، وهي تشمل كلَّ سوءةٍ حسيَّة كانت أم معنويَّة.

القرآنُ يعرِّض بمن يحرص على كشف سوءة أخيه

استعارةُ السَّوءة للجثَّةِ سوءةٌ تلحقُ الجاني إلى يومِ القيامةِ:

"في إطلاق (السَّوءة) على (الجثَّة) استعارة تصريحيَّة أصليَّة: شُبِّهتْ فيها الجثَّةُ بالسَّوءة؛ أي: العورة، بجامع ما يجب في كلٍّ من (الإخفاء): السَّوءة بالثَّوب، والجثَّة بالثَّرى"[5].

بلاغة الاستئناف البياني:

﴿قَالَ﴾: استئناف بيانيٌّ مبنيٌّ على سؤال نشأ في الذِّهن من سوق الكلام، كأنَّه قيلَ: فماذَا قالَ عند مشاهدةِ حال الغراب، فجاء الجواب: ﴿قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ﴾[6].

الإجابة عن فضولِ معرفةِ المقُولِ في مشْهدِ الغُراب

(1) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/249.
(2) رضا، تفسير المنار: 6/286.
(3) طنطاوي، التفسير الوسيط: 4/124.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/480.
(5) المطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/249.
(6) أبو السّعود، إرشاد العَقْل السّليم: 3/28.

سرُّ التَّعبير بالتَّركيب: ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰٓ﴾:

حـين يعـظُـم الذَّنب تُستحضرُ كـلُّ عـبـارات الـتَّـحـسُّـر والتَّفجُّع والثُّبور

قوله: ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰٓ﴾: "كلمةُ تحسُّر وتلهُّف، واعترافٍ على نفسه باستحقاق العذاب، وهي كلمة تُستعمل عند وقوع الدَّاهية العظيمة، ولفظُها لفظُ النِّداء، كأنَّ الويل غير حاضرٍ له، فناداه؛ ليحضُرَهُ؛ أي: أيُّها الويلُ، احضر، فهذا أوانُ حضورِكَ، وذكر (يا) زيادة بيان، كما في قوله: ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ﴾ [هود: 72]"[1]، فالنِّداء للويلة، وهي: الفضيحة، والبليَّة، وحلول الشَّرِّ، ونداء الويلة؛ لإفادة حلول سببها الَّذي تحلُّ لأجله، حتَّى كأنَّه دعاها إليه، مخاطبًا إيَّاها: هل بلغ من عجزي أنْ كنت دون الغراب علمًا وتصرُّفًا؟[2].

وذلك أنَّه ما كان يعلم كيف يدفن المقتول، فلمَّا علم ذلك من فعل الغراب؛ علم أنَّ الغراب أكثر منه علمًا، وعلم أنَّه إنَّما ندم على قتل أخيه بسبب جهله وعدم معرفته، فعند ذلك تلهَّف، وتحسَّر على ما فعله، فقال: يا ويلتى[3].

وجه المجاز في النِّداء:

مـنـاداةُ مـا لا يُعقل مبالغةٌ في التَّحسُّر وإظهار الألم النَّفسي

أصلُ النِّداء أنْ يكون لمن يُعقل، ثم قد يُنادى ما لا يُعقل على سبيل المجاز، كقولهم: يا عجبًا، ويا حسرةً، والمراد بذلك التَّعجُّب، كأنَّه قال: انظروا لهذا العجب، ولهذه الحسرة، فالمعنى: تنبَّهوا لهذه الهلكة[4]، أو أنَّ لسان حاله: كقول المتنبي:

كفى بك داءً أن ترى الموت شافيًا***وحسبُ المنايا أن يكُنَّ أمانيا[5].

فالمجاز: في قوله تعالى: ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰٓ﴾؛ لأنَّه نادى ما لا يعقل، بتنزيل الويلة منزلة ما يُنادى، كقوله: ﴿يَٰحَسۡرَتَىٰ عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنۢبِ

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/341.
(2) رضا، تفسير المنار: 6/287.
(3) الخازن، لباب التأويل: 2/40.
(4) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/481.
(5) ديوان المتنبي، ص: 145.

ٱللَّهِ﴾ [الزُّمر: 56][1]، ثم حذف المشبَّه به، ودلَّ عليه بشيءٍ من لوازمِه، وهو النِّداء، فهو من الاستعارة بالكناية، واستُعملَ ههنا؛ للتَّحسُّر وإظهار الألم النَّفسي، وإنَّ هذه البليَّة والفضيحة اللَّتين نزلتا به، ويُتحسَّر منهما، وينادِيهما، وهما بين جنبيه انبعثتا من قلبه، ومن فعلته الَّتي فعلها، ومن جهله وغبائه، وعدم التفاته إلى ما يجب عليه بالنِّسبة لجثمان أخيه الَّذي كان سببًا في جعله جثَّة هامدة، بعد أنْ كان لسانًا نقيًّا، وقلبًا تقيًّا، وأخًا مباركًا[2].

بلاغة الاستفهام في قوله: ﴿أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ﴾:

إقـــرارُ الـقـاتـل بـجـهـلـه، وغـفـلـتـه، وحـسـرتـه على صنيعه

الاستفهام في قوله: ﴿أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ﴾ للتعجُّب والإنكار على نفسه، والنَّعي من عجزه، وعدم اهتدائه إلى ما اهتدى إليه الغراب، أو للإقرار والتَّحسُّر[3]، وقد صوَّر بهذا الاستفهام التَّقريريِّ جهله، وغفلته وحسرته على غبائه، وقرَّرَ عجزه عن أن يكون مثل هذا الغراب، ولكنَّه قال ذلك بصيغة الاستفهام للتَّقرير والتَّثبيت وللحسرة على ما وقع منه، وللأسى والألم[4].

لطيفة تشبيه القاتل نفسه بالغراب:

المعاصي والآثام تُـنـزلُ الإنـسـانَ إلى دون رتـبـةِ الحيوانيَّة

في قوله: ﴿مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ﴾ تشبيهٌ، المشبَّه: الضَّمير المُستكنُّ في ﴿أَكُونَ﴾، والمشبَّه به: ﴿ٱلْغُرَابِ﴾، ووجْه الشَّبه: الحذق وحسن التَّدبير، وفي هذا التَّشبيه لطيفة حاصلها: أنَّ القاتل ممَّن كرَّمهم الله بالعقل وحسن التَّقويم، لكنَّه بجريمته هذه ارتدَّ أسفل سافلين بمعصيته، فهضم نفسه بقوله: ﴿مِثْلَ هَٰذَا ٱلْغُرَابِ﴾، واحتقرها، واستصغرها أمام غراب خسيس الطبع منكَّس الخلق، ولم يسعه إلَّا النَّدم وسوء المصير[5].

(1) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/173.
(2) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/2133.
(3) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/481، والقاسمي، محاسن التأويل: 4/111، ورضا، تفسير المنار: 6/287، وابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/174.
(4) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/2133، والمطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/250.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 3/481، والمطعني، التفسير البلاغي للاستفهام: 1/250.

سرُّ إضافة لفظ الأخ إلى القاتل:

في ظلم القريب مـزيـد أذًى، وحسرة، وندم

عبَّر بلفظ (أخ) المضاف إلى ياء المتكلِّم: ﴿أَخِي﴾ الَّذي كانت توجب رابطتُه المودَّة والمحبَّة بدل الحسد، وما أدَّى إليه من قتل شطر روحه ولحمه ودمه، فقال: ﴿سَوْءَةَ أَخِي﴾، وحسرته ليست للعجز عن مواراة السَّوءةِ التُّرابَ وغفلته حسبُ، وإنَّما لأصل الجريمة بالذَّات، ولذلك كان التَّعبير بـ﴿أَخِي﴾، وإنَّ في هذا مبتدأ درجات النَّدم؛ إذ إنَّ أولى الدَّرجات فيه أن يشعر بعظم الجريمة الَّتي ارتكبها، وأثر الإثم الَّذي فعله، وبذلك كانت الحسرة، ثمَّ كان النَّدم[1].

دلالة التَّعبير بالفعل ﴿فَأَصْبَحَ﴾:

الصَّباح مظنَّة دقَّة المُشاهدة، ووضوح المنظر والتَّأثير

ذهب ابن عطيَّة إلى أنَّ قوله: ﴿فَأَصْبَحَ﴾ عبارة عن جميع أوْقَاتِه، أقِيمَ بَعْضُ الزَّمان مكان كلِّه، وخُصَّ الصَّباحُ بذلك؛ لأنَّه بَدْءُ النهار والانبعاث إلى الأُمُور، ومظنَّةُ النَّشَاط[2]، وفي لفظ الإصباح إيماءٌ بوضوح المشهد، وبيان المنظر، وقوَّة النَّظر ودقَّته؛ وذلك أدعى للتَّأثير، والصَّباح هو وقت صفاء الفكر، فبعد عكر اللَّيل يأتي صفاء النَّهار، وفيه تبدأ الحسرات التي تتلوها المؤاخذات على المعاصي والآثام.

نكْتَة التَّعبير بلفظ النَّدم دون التَّوبة في فاصلة الآيةِ:

النَّـدمُ نوعان، ندمُ توبة، وندمُ حسرة، وظاهرُ الآيـة أنَّـه نـدمُ حسرة

يقتضي لفظ النَّدم أنَّه قد تاب؛ لقوله ﷺ: «النَّدم توبة»[3]، لكن لم يرد ما يُشير إلى أنَّه قد نَدِمَ نَدَمَ توبة؛ لأنَّه لم ينتفع بقتل أخيه، وسخط عليه بسببه أبواه وإخوته، أو أنَّ ندمه كان لأجل أنَّه تركه بالعراء استخفافًا به بعد قتله، فلمَّا رأى أنَّ الغراب دفنه؛ ندم على قساوة قلبه بعد أن رأى شفقة الغراب، فكان دون الغراب في الرَّحمة

(1) أبو زهرة، زهرة التفاسير: 4/2133 - 2134.

(2) ابن عطيّة، المحرر الوجيز: 2/180، وضعَّفه أبو حيَّان، لأن العرب اسْتَعْمَلَت: (أضْحَى)، و(بَاتَ)، و(أمْسَى) بمعنى: (صَار)، وليس شيء منها بَدْء النَّهَار، ورجَّح أنّ: (أصبح) ههنا بمعنى: صار، ينظر: أبو حيّان، البحر المحيط: 3/479، وابن عادل، اللباب في علوم الكتاب: 7/295 - 296.

(3) سنن ابن ماجه: 5/322.

والأخلاق الحميدة، فكان ندمه لهذه الأسباب، لا لأجل الخوف من اللّه تعالى بوصفه ارتكب معصيةً، فلا جرم لم ينفعه ذلك النَّدم[1]، ويبقى أمر توبته غيبًا، وإنَّما الذي يعنينا هو ما جاء عليه ظاهر النَّظم الكريم.

وقوله: ﴿فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ تذييلٌ قصد به بيان ما أصاب قابيل بعد أن قتل أخاه عدوانًا وحسدًا، ولم يعرف كيف يستر جثَّته إلَّا من الغراب[2].

نكتةُ ذكر (كان) وجمع لفظ ﴿ٱلنَّٰدِمِينَ﴾:

يفيد التَّعبير بلفظ (كان) وقوعَ فعل النَّدم منه، وتحقُّقه فيه، أو هو بمعنى: صار نادمًا، ومعنى ﴿مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾: أصبح نادمًا أشدَّ ندامة؛ لأنَّ تعبير: ﴿مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ أدلُّ على تمكُّن النَّدامة من نفسه، من أنْ يقال: نادمًا[3]؛ لدلالة هذا الاستعمال على رسوخ معنى الخبر في اسم كان؛ "لأنَّ إثبات الوصف لموصوف بعنوان كون الموصوف واحدًا من جماعة تثبت لهم ذلك الوصف أدلُّ على شدَّة تمكُّن الوصف منه، ممَّا لو أثبت له الوصف وحده؛ بناءً على أنَّ الواحد يزداد تمسُّكًا بفعله، إذا كان قد شاركه فيه جماعة؛ لأنَّه بمقدار ما يرى من كثرة المتلبِّسين بمثل فعله؛ تبعد نفسه عن التَّردُّد في سداد عملها"[4].

الدُّخولُ في زمرة النَّادمين أرسخ في قـوَّة نـدامـة الجاني

الفرق بين فاصلة الآية ﴿ٱلنَّٰدِمِينَ﴾ والسَّابقة ﴿ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾:

خُصَّت هذه الآية بأن تختم بقوله: ﴿ٱلنَّٰدِمِينَ﴾، وخُصَّت الآية الَّتي قبلها بقوله: ﴿ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾؛ لأنَّ القتل لمَّا كان سببًا للخسارة، فناسبه الختام بهذا اللَّفظ، قال: ﴿فَطَوَّعَتۡ لَهُۥ نَفۡسُهُۥ قَتۡلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾، أمَّا هذه الآية؛ فكان صنيع الغراب

الـقـتـل عـلَّـة الـخـسـارة، وصنيع الغراب علةُ النَّدم

(1) الرّازيّ، مفاتيح الغيب: 11/342.
(2) طنطاوي، التفسير الوسيط: 4/124.
(3) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 6/174.
(4) ابن عاشور، التّحريرُ والتّنوير: 1/427.

سببًا لندمه، وحسرته في قوله: ﴿قَالَ يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ﴾؛ فناسبه قوله: ﴿فَأَصۡبَحَ مِنَ ٱلنَّٰدِمِينَ﴾، فالحسرة مآلها النَّدامة.

❁ الفُروقُ المُعْجَمِيَّةُ:

الإخفاء، والمواراة:

المـــواراة أخـصُّ دلالـة، والعـلّةُ ارتبـاطـهـا لغة بالدَّفن

المواراة: إخفاء الشَّيءِ، وستره، وقد تقدَّم أنَّ معنى ﴿فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ﴾؛ أي: أسترها[1]، والإخفاء: السِّتر، إلَّا أنَّه من أصلين متباينين متضادَّين: فالأوَّل: السَّتر، والثَّاني: الإظهار[2]، فعبَّر بالمواراة؛ لكونها أخصَّ في الدِّلالة على السَّتر لخصوص دلالتها، ووجْه هذا الخصوص ارتباط اللَّفظة بالدَّفن، قال ابن عبَّاد: "الدَّفْنُ: مُوَارَاةُ المَيِّت"[3].

(1) تُنظر: فقرة شرح الألفاظ، شرح لفظة ﴿فَأُوَٰرِيَ﴾.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة: (خفي).
(3) ابن عباد، المحيط: (دَفَنَ).

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع، سورة المائدة من الآية 26 إلى الآية 106
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة المائدة من الآية 26 إلى الآية 106 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 9 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-61-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 9 : سورة المائدة من الآية 26 إلى الآية 106.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-61-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-3504784 بتاريخ 2023/03/27م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»